د.عزوز عبد الناصر- جامعة المسيلة الجزائر.
د.فكرون السعيد - جامعة المسيلة الجزائر.

مقدمة:

يعتبر ابن خلدون من المفكرين الذين سجلوا أسماءهم بين دفتي قادة الفكر العربي، وقد نال شهرة واسعة لا سيما في العصر الحديث، فلقب بالمفكر الاجتماعي والسياسي، وبالمؤرخ والفيلسوف وغيرها من الألقاب. ولقد استطاع هذا المفكر العربي المبدع أن يقدم إسهامات مهمة في مجال الفكر الإنساني . وباعتباره سياسيا ومؤرخا، فقد استفاد كثيرا من علوم عصره ومن ملاحظاته الميدانية التي جمعها خلال تنقلاته في أرجاء العالم الإسلامي، كما استفاد من قراءاته الواسعة لتاريخ العالم القديم.

ولعل ما اشتهر به من خلال بحثه المعمق والطويل لشؤون الاجتماع الإنساني ولتاريخ الأمم والأجيال مقدمته التي شرح فيها علمه الجديد، علم العمران البشري حيث يقول: " ...وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم..."[1]. ويمثل هذا العلم، حسب البعض، قطيعة في التفكير فلم يستطع المفكرون من قبله ولا من بعده الإتيان بما جاء به هو. وحسب رأي البعض الآخر لا يعتبر ابن خلدون بطفرة كما يتبادر للذهن؛ " بل هو عصارة المنهج العربي الإسلامي[2]. ومهما تباينت وجهات النظر واختلفت؛ إلاّ أنّ هناك اتفاق عام بأنّ هذا العلم قد ولد من "رحم" المجتمع العربي ومن واقعه المليء بالكثير من الأحداث والوقائع التي ميزته خلال حقبة زمنية محددة. ومن ثم فما انتهى إليه ابن خلدون من أفكار ونظريات حول المجتمع العربي يمثل استنطاقا حقيقيا امبريقيا له، بإمكانه التأصيل لما يأتي من بعده من الأبحاث وهو الذي لم يحدث. وتلك هي خطيئة أحطنا بها علم الاجتماع عندما نكون بصدد البحث في الواقع ؟ وهنا يتساءل البعض: "لما لا يجري العلماء حفريات تراثية اجتماعية ليكتشفوا ابن خلدون؟ ترى ماهي الأسباب؟ لماذا نشأ علم الاجتماع في أوروبا في حين أن أصوله عربية[3]. إن المبررات التي تجعل البعض يطرح مثل هذه التساؤلات-حسب اعتقادنا- هي أنه على الرغم من الفائدة- التي لا يمكن إنكارها- التي قدمها ويمكن أن يقدمها علم الاجتماع الغربي من نظريات ومناهج ووحدات وآليات لتفسير واقع المجتمع العربي؛ إلاّ أنه ينبغي الالتفات أن هذا العلم قد تشكل في مجتمعات ذات خصوصية حضارية وساهمت في نشأته ظروف محددة، ومن ثم لا يمكننا أن نتصور أنه من السهل انفكاك العقول التي أنتجه عن الظروف والقيود الثقافية المحيطة بهم. وبالتبعية تكون النتائج والنظريات ذات ارتباط وثيق بالواقع الذي كان مصدر الهام للعقول التي اكتشفتها. إنه من السهل أن يعود العلماء إلى ابن خلدون، للبحث في ثنايا مقدمته، والاستلهام من أفكاره ونظرياته، إذا ما أريد تكوين رؤية واضحة عن أبنية المجتمع العربي، وإذا ما أريد إيجاد تفسيرات لظواهره، وإذا ما أريد تطوير علما يكون أكثرا صلة وارتباطا بهويته الحضارية. وعليه جاء هذا البحث ليقدم عرضا للإسهامات العلمية للعلامة ابن خلدون على نحو يكشف عن فضل هذا الرجل في تأسيس علم العمران البشري.

- **نبذة عن حياة ابن خلدون:**

تعود أسرة ابن خلدون حسب رواية ابن حزم إلى أصل حضرمي، ثم نزح أفرادها في العصور السابقة على الإسلام إلى الحجاز، وقد اشتهر منهم وائل بن حجر الذي صحب الرسول صلى الله وعليه وسلم وبعده فيما بعد ومعاوية بن أبي سفيان إلى أهل اليمن ليعلمهم القرآن، وأثناء الفتوحات الإسلامية دخل منهم إلى الأندلس خالد بن عثمان وهو من بني خلدون.

نشأ بنو خلدون بمدينة قرمونة بالأندلس، حيث استقر فيها خالد بن عثمان، ثم نزحوا فيما بعد إلى اشبيليا التي كانت موطنا لهم. ومنهم محمد الذي آثر العلم والدرس وعزف عن شؤون السياسة إلى أن توفي سنة 749هـ الموافق لـ 1339م. تاركا ورائه خمسة أبناء منهم عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة[4].

ولد ابن خلدون وهو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون بتونس في رمضان عام 732هـ 27 مايو 1332م[4]. وقرأ القرآن الكريم وهو يافع، ودرس العربية على يد أبيه، واهتم بدراسة الحديث والفقه والعلوم العقلية[5] والنحو وكتب الأدب ودواوين الشعر[6].

وقد جال ابن خلدون أقطار عديدة من الدول العربية والإسلامية في وقته: المغرب، تونس، الجزائر، والأندلس. وتعرض إلى الكثير من التقلبات والمضايقات نتيجة للمكائد التي لم تفارقه طيلة حياته إلى أن استقر أخيرا في مصر. وتولى العديد من الوظائف (التدريس والقضاء...). وقد وافته المنية في السادس والعشرين من شهر مارس من عام 1406م. تاركا ورائه الكثير من الآثار[7]. تلك الآثار تحدث عنها لسان الدين بن الخطيب الذي اهتم بترجمة حياة ابن خلدون؛ نظرا للعلاقة الحميمة والقوية التي كانت تربطهم، وإن كان ابن خلدون لم يتحدث عن ذلك. وربما كانت تبدو من وجهة نظره تافهة. ويعتبر كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الكتاب والوحيد الذي وصل إلينا، والذي كان مرتب على مقدمة وثلاثة كتب حسب تعبير صاحب المقدمة نفسه.

- المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلمام بمغالط المؤرخين.
- الكتاب الأول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما إلى ذلك من الملك والأسباب.
- الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بداية الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل: النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والفرنجة.
- الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم من زناتة، وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول. أما الكتاب المعروف الآن باسم المقدمة، فهو في حقيقة الأمر المقدمة والكتاب الأول من كتاب العبر[8].

-عصر ابن خلدون:

عاش ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد، وكان هذا العصر من العصور التي شهدت فيها مجتمعات العالم العديد من التحولات والتقلبات تعبر عن مرحلة انتقالية من حياة البشرية. فعلى مستوى العالم العربي مرت بلدانه بمرحلة وصل فيها التراجع والانحطاط ذروته في وقت كان فيه الغرب يسعى إلى بناء وتشييد حضارة قوية ويحقق نهضته[9].

لقد عرف العالم الإسلامي خلال هذا القرن كوارث عديد تؤكد في مجملها أن شمس الحضارة الإسلامية بدأت في الأفول سياسيا واجتماعيا وفكريا في المشرق والمغرب، ففي المشرق كانت مجتمعاته تتعرض لهجمات التتر من حين لآخر، وفي المغرب يزداد حكم المسلمين في الأندلس ضيقا وتقلصا، وتضعف الأسر الحاكمة وتدخل في مؤامرات وحروب طويلة بين القبائل العربية لم تتحدد فيها معالمها ولا غاياتها، في الوقت الذي لم تعرف فيه نهاية لها، حتى الطاعون الجارف أخذ نصيبه منها ليترك خرابا ودمارا. هذا فضلا عن سيطرة الجمود الفكري وانتشار التفكير الخرافي. كل هذه الظروف خلقت أوضاعا مرتبكة ومضطربة. ولعل حظ البلاد المغربية من كل ذلك كان أشد وأعنف. فمن الناحية السياسية تفككت الوحدات السياسية الكبرى التي حملت على عاتقها مشعل الحضارة الإسلامية، فالدولة العباسية في الشرق لم يعرف لها أثر، والدولة الموحدية في المغرب تلاشت[10]. وتفكك المغرب العربي إلى ثلاثة أسر حاكمة أو دويلات مجزئة كانت تنشب بينها حروب طاحنة، بنو المرين في المغرب، والحفصيين في تونس، وبنو عبد الواد في الجزائر[11].

ومن الناحية الاجتماعية كان المجتمع العربي مجتمعا قبليا في الغالب وحدته الاجتماعية القبيلة، لذلك كان، في معظم الأحيان، ما يتعرض إلى حروب تفتك فيها القبائل بعضها ببعض تحت تأثير العوامل الطبيعية والجغرافية والسياسية-الاجتماعية. وكان من نتيجة الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة أن تثبط من الحركات الفكرية، وهذا ما حصل فعلا، حيث سيطر الجمود الفكري وغلق فيه باب الاجتهاد في العلوم الدينية والانصراف كليا عن العلوم العقلية[12].

-البحوث الاجتماعية قبل ابن خلدون:

سلك الباحثون قبل ابن خلدون في دراستهم للظواهر طرقا مختلفة في جوهرها وطبيعتها عن الطرق التي سلكها العلماء في دراسة العلوم الطبيعية والرياضية، وهي طرق لا تعنى ببحث الظواهر بقصد الكشف عن القوانين التي تخضع لها، أو حتى الاعتقاد بذلك، بقدر ما تتوقف عند مجرد الوصف أو إخضاع الحقائق لها أو الدعوة إليها. فهناك البحوث التاريخية الخالصة التي اقتصرت على مجرد وصف الظواهر لبيان ما كانت عليه، أو ما هي عليه دون استخلاص أية نتائج من وراء الوصف، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الظواهر والقوانين التي تخضع لها. وقاد سلك هذا المسار المؤرخين قبل ابن خلدون، فعالجوا قضايا عديدة تتعلق بالنظم السياسية والقضائية والاقتصادية وغيرها من ظواهر الاجتماع، واقتصروا، كما سبق الذكر، على مجرد الوصف، حتى دراستهم لتلك الظواهر تمت في صورة مستقلة عن

حوادث التاريخ العام، دون إمعان النظر في العلاقات التي تربطها ببعضها البعض، أو في العلاقات التي تربط بين أجزاء الظاهرة نفسها. أما الطريقة الثانية التي سلكها الباحثون قبل ابن خلدون في دراساتهم هي الدعوة إلى المبادئ التي تقررها الظواهر الاجتماعية، وبيان محاسنها ومحاولة ترغيب الناس فيها، وحثهم على التمسك بها وتثبيتها في أنفسهم وتحذيرهم من تعدي حدودها، وسار على النهج علماء الدين والخطابة والأخلاق كابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق"، والغزالي في كتابه: "إحياء علوم الدين". في حين اتجه البعض في دراستهم للظواهر الاجتماعية إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر بحسب المبادئ المثالية التي يرتضيها المجتمع كما فعل أفلاطون في كتابه :"الجمهورية"، والفارابي في كتابه : " آراء أهل المدينة الفاضلة"[13].

- علم العمران:

اتجه ابن خلدون في أبحاثه إلى نوعين من البحوث تتمثل الأولى في بحوث الاجتماع الإنساني وما يتعلق بشؤون العمران وطبائعه. وقد تطرق إلى هذه الموضوعات في مؤلفه :" في التاريخ" وهو الكتاب الذي يعرف بكتاب العبر. وهنا تجلت عبقريته وظهرت ملامح نبوغه، واليها ترجع أسباب شهرته، حيث ذاع صيته، وخلد اسمه في دفتر قادة الفكر العربي الإسلامي.

أثناء البحث الطويل لابن خلدون في شؤون الاجتماع الإنساني أسس علمه الجديد الذي لم يسبقه فيه أحد، ولعل أبرز ما انتهى إليه هو خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة مطردة، مثلها مثل الظواهر الطبيعية. فلما كانت ظواهر الكون تخضع لقوانين والظواهر الطبيعية هي الأخرى جزء من الظواهر الكونية، وتسير وفق قوانين معينة؛ فإن النتيجة الحتمية لذلك هي خضوع ظواهر الاجتماع الانساني إلى قوانين تحكمها وتسير بمقتضاها، ولا تسير حسب الأهواء والمصادفات. ومن هنا بالضبط دخلت ظواهر الاجتماع حيز العلوم الوضعية بعد ما كانت خارجه في قرون مضت[14]. أما النوع الثاني من البحوث التي اتجه إليها ابن خلدون فتتمثل في بحوث التاريخ التي اقتفت البحث في تاريخ الأمم العربية والبربرية، وقد وقف عند هذه البحوث في الكتابين الثاني والثالث من مؤلفه الشهير كتاب العبر.

يبدو أن هناك وجهة أخرى في دراسة الظواهر الاجتماعية لم يتفطن إليها المؤرخون السابقون على ابن خلدون حسب رأي هذا الأخير، وهي أن تدرس الظواهر الاجتماعية لا لمجرد وصفها، أو الدعوة إليها ، أو لبيان ما هي عليه، أو ما ينبغي أن تكون عليه؛ وإنّما دراستها وتحليلها بشكل يؤدي إلى بيان طبيعتها وعوامل قيامها، والقوانين التي تخضع إليها كما يدرس علماء الفلك والكيمياء ووظائف الأعضاء والرياضة الظواهر الطبيعية. هذه الناحية من الدراسة لا تكون متاحة؛ إلاّ لمن اعتقد بأنّ الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات، وإنّما تخضع لقوانين شأنها شأن الظواهر الطبيعية، هذه الحقيقة لم ينتبه إليها أحد من قبل؛ بل على النقيض من ذلك، حيث ساد اعتقاد بأن الظواهر الاجتماعية خاضعة لتوجيه الزعماء والمشرعين ودعاة الإصلاح؛ أما ابن خلدون فقد هدته تأملاته ومشاهداته لشؤون الاجتماع الإنساني إلى أنّ الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن غيرها من ظواهر الكون. من هذا المنطلق اتضحت معالم العلم الجديد، عبرت عنه مقدمته وقد سماه بعلم العمران البشري أو علم الاجتماع الإنساني، وهو العلم الذي يطلق عليه

اليوم"السوسيولوجيا". يقول بن خلدون: " وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه، فإنّه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا"[15]. وأما ما قصده ابن خلدون بكلمة "عوارض" أو ما يلحق المجتمع من "عوارض لذاته"؛ وهي كلمة في الحقيقة استخدمها في مواطن وأجزاء عدة من المقدمة؛ ما نقصده نحن اليوم بكلمة "قوانين"، ويظهر هذا المعنى في حديثه عن علم الهندسة إذ يقول: " ...هذا العلم هو النظر في المقادير أما المتصلة كالخطوط والسطح والحجم، وأما المنفصلة كالأعداد، وفيما يعرض له من العوارض الذاتية، مثل كل مثلث فزواياه مثل قائمتين، ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه، ولو خرجا إلى غير نهاية، ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان..." [16]. ويؤكد ابن خلدون على أن دراسة الظواهر الاجتماعية على هذا النحو لم يسبقه فيها أحد حيث يقول:" ...واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة..." [17]. ويضيف: " ...وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم...". [18]. ثم يتحفظ ابن خلدون تحفظ العلماء المتواضعين على هذا القول فيؤكد: " أو لعلّهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة، والحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر ممّا وصل"..."[19].

- دوافع إنشاء علم العمران:

كانت هناك جملة من الأسباب التي دعت ابن خلدون إلى إنشاء علم العمران منها حرصه الشديد على تخليص البحوث التاريخية من الإخبار الكاذبة، فقد رأى ابن خلدون في كتب السابقين من المؤرخين الكثير من الأخبار غير الصحيحة، ولهذا أكد على ضرورة تخليص التاريخ من تلك الطائفة التي تشمل الأخبار الكاذبة التي لا تعطي صورة صادقة وواقعية لأحوال المجتمعات، ولهذا كان يهدف من وراء عمله إلى إنشاء أداة يستطيع بفضلها الباحثون في علم التاريخ التمييز بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن أن يكون صادقا فيما يتعلق بأخبار الظواهر الاجتماع الإنساني، فيتم استبعاد ما لا يحتمل الصدق، وفي المقابل يتم التركيز وبذل الجهود في بحث ما يحتمل الصدق، وبعبارة أدق، البحث فيما يمكن حدوثه في شؤون الاجتماع الإنساني[20]. ولعلاج هذه الأخطاء لا بد من البحث والتقصي في الأسباب التي تدعو إلى الكذب، أو إلى الأسباب التي تدعو إلى تقبل الأخبار غير صحيحة. وبالتالي؛ متى تم الكشف عنها أمكن علاجها وتفاديها وتصحيحها. وقد حدد ابن خلدون ثلاثة طوائف من الأسباب التي تدعو إلى الكذب. تتعلق الأولى بشخصية المؤلف وميوله وأهواؤه ومدى انقياده إلى هذه الميول والأهواء [21]. ومن ذلك "التشيعات للآراء والمذاهب، فإنّ النفس البشرية إذا كانت على حالة الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله..." [22]. ومنها: " تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء

والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك..." [23]. ومنها: "الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين"[24].

أما الطائفة الثانية فتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية، سواء كانت هذه الظواهر فلكية أو كيميائية أو تتعلق بالطبيعة والحيوان والنبات، فهناك الكثير من المؤرخين ممن يأتوا بأخبار ذات صلة بالظواهر السالفة الذكر، ويضعون لها قوانين على الرغم من استحالة حدوثها، ولعل ما نقله المسعودي عن الاسكندر لدليل واضح على ذلك، عندما قال بأن الاسكندر عندما صدته دواب البحر من الشياطين البحرية عن بناء الإسكندرية، كيف اتخذ من تابوت من خشب وفي باطنه صندوق من زجاج، وغاص فيه إلى قعر البحر. وهي في الحقيقة قصة خرافية لاستحالة حدوث مثل هذه الظاهرة؛ لأن المنغمس في الماء يختنق لفقدان الأكسجين. يقول ابن خلدون: " ومن الأسباب المقتضية له أيضا، وهي سابقة على جميع ما تقدم، الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإنّ كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله... وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم...كما نقله المسعودي عن الاسكندر"من أحاديث خرافية[25].

وأما الطائفة الثالثة من الأسباب التي تدعو إلى الوقوع في الخطأ، فتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الإنساني، فحسب رأي ابن خلدون، أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والصدفة؛ وإنما تحكمها قوانين، يقول ابن خلدون:"... فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب[26]. وأما إذا اعتمد في الأخبار "على مجرد النقل ولم تحكم... طبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ...فربما لم يؤمن من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصواب"[27].

لذا كانت تكمن الدوافع الفعلية في المعرفة التاريخية لبحث ابن خلدون في بيئة عصره وسيرة حياته، التي اقترنت فيها التجارب والخبرات العملية بالثقافة العربية الإسلامية وبالتأملات الفلسفية، فأملت عليه طريقة في التفكير لا تسلم إلا بالتفسيرات التاريخية المستندة إلى المعرفة العقلية والحسية. فما شاهده ابن خلدون من تبدل في أحوال الأمم والممالك، وما استقرأه من تاريخ الأمم والشعوب، وما عاصره من حوادث الزمان والمكان؛ خلق لديه وعيا نقديا، جعله يعيد النظر لا في طرق المؤرخين وينتقدها فحسب؛ وإنّما في مغزى المعرفة التاريخية وموضوعها أيضا، ومن ثم كان الدافع الأصلي للمعرفة الخلدونية؛ إنّما يكمن في محاولته لفهم مجتمع عصره وتكويناته وقوانيه[28].

-الفائدة من العلم :

لقد استوحى ابن خلدون علمه الجديد من خلال مطالعته لكتب التاريخ، فكان يسعى باحثا عن الدروس والعبر من الماضي؛ لاكتشاف ما يعينه على فهم الحاضر

المتثاقل بالأحداث، وبالتالي؛ فإنّ الطريقة التي سلكها المفكر في إنشاء علم العمران هي التاريخ، وبعبارة أدق، تلك العلاقة الوثيقة التي تربط بين الماضي والحاضر، فرأى في علمه طريقة يتحرى بها المؤرخون لتمحيص الأخبار المنقولة، وهكذا يعد علم العمران، من هذه الوجهة، أفضل أداة للمؤرخين لا غنى عنها، طبعا، إذا أرادوا نقل صورة واضحة لمعاصريهم والأجيال اللاحقة أقرب ما تكون للحقيقة. وعن فائدة العلم يقول ابن خلدون:" وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة "[29]. إنّ موقفه هذا فيه نوع من الغموض والوضوح في وقت ذاته، فواضح من حيث تأكيده أن ثمرته شريفة ، فما معنى كلمة شريف هنا؟ يقول الغزالي في كتابه ميزان العمل:" إنّ شرف العلم يدرك بشيئين أحدهما شرف ثمرته، والآخر بوثاقة دلالته". فالعلوم إمّا أن تنفع الإنسان في الدنيا والآخرة، وإمّا أن تكون شريفة؛ لأنّها تقدم خدمة كبيرة للعقل، حيث تشبع دافع الإنسان للمعرفة والاكتشاف، وتساعده على التقدم. إذن فعلم العمران من وجهة النظر الأولى شريف؛ لأنّ ثمرته تصحيح الأخبار، وهي تساعد الإنسان على فهم الماضي واستخلاص العبر منه، ولذلك كانت ثمرة هذا العلم ضعيفة؛ لأنه يقدم لنا فائدة بطريقة غير مباشرة، إذ تكون عبر التاريخ. [30].

إنّ علم العمران من وجهة نظر ابن خلدون علم يبحث في أحوال التمدن والعمران، وما تخضع له ظواهر الاجتماع الإنساني من قوانين: "وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها"[31]. تلك هي موضوعات هذا العلم، وذلك هو شرفها وصاحبها يقول: " ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول، وتعاصر الأمم الأول وأسباب التصرف والحول، في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة، ومدينة وحلة، وعزة وذلة، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع منتظر..." [32]. بهذه العبارات يوضح ابن خلدون هدف علمه وموضوعه وغاياته. فاستعمل مصطلح العمران ليشير به إلى مجموعة واسعة من الظواهر الاجتماعية التي تشمل المجتمع البدوي والحضري، والدول والخلافة والملك، والصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، والعلوم واكتسابها وتعلمها. وبهذه الأمثلة التي يقدمها ابن خلدون يلاحظ أنه اهتم بتحليل الظواهر الاجتماعية ولكنه لم يعرّف هذه الظواهر أو يبين خصائصها. ويرى بعض العلماء أن ابن خلدون يقترب في فهمه لموضوع علم العمران من اميل دوركايم الذي ركز على أن المجتمع أكثر من مجموع الناس الذين يؤلفونه، فالمجتمع يشمل البناءات الاجتماعية التي تأخذ أشكالا متنوعة كالمؤسسات والجماعات المهنية، والعادات والتقاليد. وفي هذا السياق يؤكد عبد القادر جغلول أن العمران بالنسبة لابن خلدون هو: "واقع لا يتحدد بالأفراد؛ بل بالبناءات والجماعات التي تكونه"[33]. وينظر ابن خلدون إلى المجتمع الإنساني بنظرة كلية تقوم على أن السلوك الإنساني تحكمه قوانين تتولد عن تطور العمران البشري، فالتاريخ البشري فعالية حية، تلتئم في نطاقه وقائع الماضي والحاضر في إطار ترابط علي وطردي، واستقراء علمي، يجعل وقائع العمران البشري يرتبط بعضها ببعض من خلال القوانين الاستقرائية، وتشكّل نسقا علميا متكاملا[34].

-علم العمران: أهو علم الاجتماع اليوم؟

يذهب الكثير من الباحثين إلى القول بأن علم العمران ينطبق تماما على الدراسات الاجتماعية الحديثة التي تعرف بالسوسيولوجيا اليوم. وبالتالي؛ يستحق ابن خلدون لقب منشئ علم الاجتماع أكثر من غيره؛ لأنّ هناك توافق من وجهة نظر هؤلاء بخصوص موضوع العلمين ومنهجهما والغاية منهما. فموضوع علم العمران هو الاجتماع البشري ومنهجه علمي وضعي تجريبي، وغايته دراسة الظواهر الاجتماعية؛ من أجل الكشف عن القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية، ومن هذه الوجهة ينطبق علم العمران على علم الاجتماع.

وفي حالة تجاوز هذه المظاهر الشكلية ونفذنا إلى عمق التفكير الخلدوني للتعرف على تصوره هو لهذا العلم وحقيقة علمه، ومعرفة الإطار الذي موضعه فيه؛ نكون ضحية التردد في توأمة العمران البشري وعلم الاجتماع. فالشغل الشاغل الذي أخذ نصيبه الأكثر من الاهتمام هو تعاقب الدول وتزاحمها وأسباب قيامها وسقوطها، ولم يعن بالشؤون الاجتماعية في عمومها، فالمحور الذي تدور حوله أفكاره هو الدولة كما تصورها ودرسها تاريخيا واجتماعيا، ومن هذا المنطلق كان ابن خلدون يعنى بدارسة الظواهر تلك التي تؤدي إلى قيام الدول وسقوطها، وأما تلك التي تحدث من خلال النشاط الاجتماعي الفكري للحياة الحضرية والتي تعتبر الدولة دائما شرطا لوجودها؛ فإنّ صاحب المقدمة لا يولي لها أدنى اهتمام. فلا يعنى بدراسة الفرد ولا بالأسرة ولا بالعلاقات الاجتماعية . وبالرغم من أنّ أبحاثه تكاد تنصب في مجملها على المجتمع القبلي؛ إلاّ أنه لا يهتم بدراسة حياة القبيلة ولا بعلاقاتها الداخلية ولا بتقاليدها ولا بعاداتها؛ وإنّما يهتم بها خلال فترة معينة من حياتها[35]. أي عندما تصبح قوة سياسية تتصارع مع القبائل الأخرى من أجل السلطة فقط. وبالتالي؛ فإنّ النتيجة التي يمكن الخروج بها هو أن أبحاث ابن خلدون تمتد عموديا أكثر من امتدادها أفقيا، وعليه فإنّ علم العمران الخلدوني أضيق من علم الاجتماع من الناحية الأفقية، ولكنه أعمق منه من الناحية العمودية(التاريخية). فبمقدار ما تمتد الدراسات الاجتماعية وتهتم بمختلف الظواهر الاجتماعية في تداخلها واتساعها ودون التقيد بالزمان والمكان؛ بمقدار ما يغوص علم العمران في تتبع ظاهرة اجتماعية بعينها هي الدولة خلال نشأتها وتطورها. ومن هذه الناحية يبدو أنّ علم العمران أقرب إلى التاريخ منه إلى علم الاجتماع. هل إذن نحن أمام فلسفة التاريخ؟

هناك الكثير من المفكرين الذين أخذوا بهذا الاعتقاد وعلى رأسهم المؤرخ البريطاني "ارنولد تونبي" و"روبرت فلينت". ولكن هل يعتبر العمران البشري فلسفة في التاريخ؟ يمكن القول أن ابن خلدون لم يكن يهدف إلى تفسير التاريخ ككل، وإنما كان يهدف إلى بيان العوامل التي تحكمت في حقبة تاريخية معينة هي تاريخ الإسلام على العموم والمغرب العربي على وجه الخصوص. كما أنّ الأساس الذي انطلق منه ابن خلدون لم يكن أساسا فلسفيا، بل سياسيا واجتماعيا، وحتى مفهوم طبائع العمران هو مفهوم ضيق من الناحية الفلسفية فلا يعني به قانونا عاما تخضع له جميع ظواهر الحياة. ومن ثم فجميع هذه النقاط تمنعنا من القول بأن علم العمران هو فلسفة في التاريخ[36].

-ما بعد ابن خلدون:

يبدو أن ابن خلدون كان سابقا لعصره، لقد عادت الدراسات الاجتماعية إلى سابق عهدها، فلم تتجاوز حدود الوصف التاريخي، والدعوة إلى تثبيتها في النفوس، وبيان ما يمكن أن تكون عليه ، فظهرت أنواع من البحوث. تتناول الأولى الحضارة الإنسانية في مجملها، وتهتم بدراستها من ناحية تطورها فقط، وعرفت هذه الطائفة من البحوث بفلسفة التاريخ، وأول من اشتهر بها هو العالم الايطالي "فيكو" في كتابه "العلم الحديث". ولا ننسى البحوث التي قام بها المفكرين من أمثال "ليسنج" و"هردر" في المانيا، و"فولتير" و"كوندرسيه" في فرنسا. وتختلف هذه البحوث عن بحوث ابن خلدون ؛ كون أن الأخيرة تتناول جميع نواحي الحياة الاجتماعية سواء من ناحية التطور أو الاستقرار، وتعتمد على الملاحظة والاستقراء؛ بينما نجد فلسفة التاريخ متأثرة بنظريات فلسفية وآراء مبيتة من قبل، وتحاول إخضاع حقائق التاريخ لتلك النظريات[37]. وتشتمل الطائفة الثانية على بحوث خاصة، يعالج كل بحث منها مجموعة محددة من ظواهر الاجتماع لبيان طبيعتها والكشف عن القوانين التي تسير بمقتضاها، وقد نتج عن هذه البحوث عدة علوم اجتماعية منها: الاقتصاد السياسي وافتتحت هذا الدراسات على يد جماعة الفيزوكرات في فرنسا من أمثال "كناي" و"تورجو"، وتبعهم فيما بعد جماعة الأحرار في انجلترا من أمثال "ادم سميث" و"ريكاردو". ومنها فلسفة القانون (روح القانون)، وأول من افتتح هذه الشعبة هو "منتنسكيو" في كتابه"روح القوانين". ومنها الفلسفة السياسية، وأول من كتب في هذا المجال هو "جون جاك روسو" في مؤلفه العقد الاجتماعي". ومنها علم الإحصاء، وأول من افتتح هذه الشعبة هو العلامة الانجليزي "مالتس".

وبالرغم من أن هذه البحوث تتجه بفروعها المختلفة إلى الأهداف التي ترمي إليها مقدمة ابن خلدون؛ إلا أن بحوث ابن خلدون بحوث شاملة تهتم بجميع الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التي تحكمها، كما أنها لا تهمل علاقاتها ببعضها البعض، وتعتمد على الملاحظة واستقراء الحوادث، وتسعى إلى تحقيق أغراض علمية خالصة غير متأثرة بالاتجاهات الفلسفية كما في البحوث السالفة الذكر[38].

وعلى العموم لم تؤدي تلك المحاولات التي بذلت قبل القرن العشرين إلى علم الاجتماع المعروف اليوم، لأنّ هؤلاء المفكرين كانوا أقرب إلى الفلسفة منه إلى روح العلم، وهنا لا يمكننا تصور كيف استطاع ابن خلدون التخلص والتحرر من الطابع الفلسفي الذي تميزت به البحوث الاجتماعية في العصور الوسطى[39].

-مصير علم العمران:

هكذا أنشأ ابن خلدون علمه الجديد وإنتهى منه، وكان له أمل كبير في أن يأتي ممن بعده ويقوم بتنقيح هذا العلم، إلا أنّ هذا العلم لم يلق الرواج الذي كان يستحقه في العالم العربي، إلا فيما يبدو عند "المقريزي" و"الاصبحي" و"ابن حجر العسقلاني". والغريب أن ابن خلدون اشتهر بتاريخه أكثر مما اشتهرت به مقدمته

الذي ظلت مهملة طيلة قرون من الزمن من دون شرح ولا تفسير، وأما الأتراك فبدا اهتمامهم بالمقدمة منذ القرن السابع عشر، وفي البلاد العربية لم تتوجه الأنظار إليها؛ إلا في أواخر القرن الماضي، حتى الاهتمام بها كان على شكل موضة على حد تعبير "بوتول"، وربما كان ذلك بدافع التقليد، عندما شاهد العرب الأوروبيون يقبلون على تراث ابن خلدون ويترجمونه. وكان أول من نبه الأوربيين إلى المقدمة هو المستشرق الفرنسي "دربلو" في مؤلفه" المكتبة الشرقية عام1697م". إلا أنّه لم يكن على علم بقيمة مقدمة ابن خلدون وأصالة تراثها. ولم يبدأ الاهتمام الجدي بابن خلدون؛ إلا في أواخر القرن التاسع عشر عندما أشاد الألماني "شولتز" عام 1812 بابن خلدون ولقبه بمنتسكيو العرب. ولقد كان للفرنسيين القسط الأكبر من الاهتمام. وربما يفسر ذلك بأن فرنسا كانت مستولية على الجزائر وتريد الاستحواذ على المناطق العربية، ومن ثم كانت بحاجة إلى وصف أوضاع تلك الشعوب وبيان طبيعتها وخصائصها، يضاف إلى ذلك أن علم الاجتماع الحديث كانت قد ظهرت إرهاصاته الأولى في فرنسا عندما ألف "أجوست كونت "كتابا سماه بعلم الاجتماع[40].

-خاتمة:

تلك هي حقيقة علم العمران البشري أو الاجتماع الإنساني، وما يمكن استخلاصه من خلال هذا العرض الموجز لحقيقة العمران البشري ولأبرز إسهامات العلامة ابن خلدون، أن هذا الأخير يرجع له الفضل في وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع سواء من حيث الموضوع أو من حيث المنهج. وتظهر عبقريته ورسوخه في مجال العلم والمعرفة كون بحثه يمثل قطيعة في التفكير، فلم يستطع السابقون عليه من المؤرخون ولا الذين جاؤوا من بعده الإتيان بما جاء به هو. وهذه بعض الشواهد التي تؤكد على عبقرية الرجل، فيقول "ساطع الحصري" :" إني أعتقد أن ابن خلدون وضع أسس علم الاجتماع ترتفع ببناء ذلك العلم ارتفاعا يستحق الإعجاب؛ إلا أن ذلك البناء نكب بالآمال وبالنسيان... وقام علم الاجتماع على أسس جديدة تماما مماثلة للأسس التي كان قد وضعها ابن خلدون، ولكنها مستقلة عنها استقلالا كليا"[41]. ويؤكد "نومبلوفيتش": " يجوز اعتبار ابن خلدون مفكرا عصريا بالحقيقة...درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادئ ورزين، وأبدى في الموضوع آراء عميقة جدا ليس قبل اجوست كونت فحسب؛ بل قبل فيكو أيضا...وفي الحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه نحن اليوم علم الاجتماع... [42]. وليس القصد من وراء هذا السياق الضمني لهذه الشواهد التدليل على من منشئ علم الاجتماع أو الدفاع عن لقب منشئ علم الاجتماع بقدر ما نسعى إلى التذكير بوجود علما يشكل إطار مرجعيا فكريا ينبغي أن ننطلق منه للبحث في واقع المجتمعات العربية، ومن ثم يوفر هذا العلم الكثير من الجهد للباحثين لتشكيل رؤية عميقة عن تكوين أبنيتها وتطورها وتغيرها، كما أن هذا العلم ما زال لم يأخذ نصيبه من الاهتمام والتمحيص خاصة فيما يتعلق بالنتائج والنظريات التي انتهى إليها، وهذه الوضعية تعكسها الكثير من التبريرات التي نفسر بها الكثير من الأحداث التي يزدحم بها العالم اليوم في شتى مجالاته وأجزائه. إننا بحاجة إلى علم اجتماع يكون مرتبطا بالواقع، متأصلا في التراث، مستلهما مفاهيمه ومناهجه منهما. وتكتسب هذه الفكرة أهميتها إذا ما تم أخذ بعين الاعتبار أن النظريات الاجتماعية المتنوعة؛ إنّما تعكس

خلفيات ثقافية وحضارية للمجتمعات الإنسانية التي نشأت وّترعرعت فيها، الأمر الذي جعلها لا تنفصل عن الهوية الحضارية للمجتمع الأم. وبحكم هذه العلاقة؛ فإنّ التقدم النظري والمنهجي لعلم اجتماع العربي يتوقف على تأصيله في التراث الاجتماعي وفي المجتمع العربي[43].

– الهوامش:

[1]- عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: الأستاذ درويش الجويدي: المكتبة العصرية الجديدة، بيروت، 2003، ص42

[2]- عبد الله الهمالي، عبد القادر عرابي: "قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، في مجلة: المستقبل العربي، السنة الثالثة عشر، العدد141، نوفمبر1990، ص 27

[3]- المرجع نفسه، ص 27

[4] -علي عبد الواحد وافي: ابن خلدون، قادة الفكر في الشرق والغرب(3)، مكتبة نهضة مصر، مصر، دت، ص28-32، 19-20

[5] –عبد الرحمن بدواي: مؤلفات ابن خلدون، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1399هـ-1979م، ص9

[6] – ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1378هـ، ص68

[7]-علي عبد الواحد وافي: مرجع سابق، ص 66

[8] - ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 96-97

[9]- المرجع نفسه، ص 53

[10]- محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، معالم النظرية الخلدونية في التاريخ الإسلامي، دار الشؤون الثقافية العامة، دار النشر المغربية- بغداد العراق، دت، ص19-20

[11]- ساطع الحصري، مرجع سابق، ص55

[12]- محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص26

(13)- علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق ، ص102

(14)- المرجع نفسه، ص69

(15)- عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق ، ص42

(16)- المرجع نفسه، ص470

(17)- المرجع نفسه، ص42

(18)- المرجع نفسه ، ص42

(19)- المرجع نفسه ، ص42

(20)- محمد عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص 122

(21)- المرجع نفسه، ص107

(22)- عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص40

(23)- المرجع نفسه ، ص40

(24)- المرجع نفسه ، ص40

(25)- المرجع نفسه ، ص40

(26)- المرجع نفسه 2003، ص40

(27)- المرجع نفسه ، ص16

(28)- عرابي، عبد القادر: "قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، في مجلة: المستقبل العربي، السنة الثانية عشر، العدد125، تموز 1989، ص89

(29)- عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص43

(30)- علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص180ـ181

(31)- عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص12

(32)- المرجع نفسه، ص13

[33]-مجد الدين عمر خيري: تأسيس علم الاجتماع: إشكالية الموضوع والمنهج عند ابن خلدون وأجوست كونت وإميل دوركايم"، في مجلةدراسات، المجلد الثامن عشر(أ)، العدد الرابع، 1991، ص 189-190

[34]- عبد القادر عرابي، مرجع سابق، ص93

[35]- محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص191-193

[36]- المرجع نفسه، ص193-196

[37]-علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص136-138

[38]- المرجع نفسه، ص125

[39]- عبده الحلو: ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، بيروت- لبنان، 1969م، ص201

[40]-علي الوردي: منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، (دون ذكر بقية المعلومات)، ص253-263

[41]- عبده الحلو، مرجع سابق، ص214

[42]-المرجع نفسه، ص215

[43]- عبد الله الهمالي ،عبد القادر عرابي ، مرجع سابق، ص 28

- قائمة المراجع:

1- د/ الوردي، علي: منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، (دون ذكر بقية المعلومات).
2- وافي علي عبد الواحد: مقدمة ابن خلدون، تأليف العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، الجزء الأول، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1371هـ1957م.
3- وافي، علي عبد الوافي: ابن خلدون، قادة الفكر في الشرق والغرب(3)، مكتبة نهضة مصر، مصر، دت.
4- بداوي عبد الرحمن: مؤلفات ابن خلدون، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1399هـ-1979م.
5- الحصري، ساطع: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1378هـ.
6- الجابري، محمد عابد: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، معالم النظرية الخلدونية في التاريخ الإسلامي، دار الشؤون الثقافية العامة، دار النشر المغربية- بغداد العراق، دت.
7- ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، تحقيق الأستاذ درويش الجويدي المكتبة العصرية الجديدة، بيروت، 2003.

8- الحلو، عبده: ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، بيروت- لبنان، 1969م.

9- عرابي، عبد القادر: "قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، في مجلة: المستقبل العربي، السنة الثانية عشر، العدد125، تموز 1989.

10- الهمالي، عبد الله، عرابي، عبد القادر: "قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، في مجلة: المستقبل العربي، السنة الثالثة عشر، العدد141، نوفمبر1990.

11- خيري، مجد الدين عمر:تأسيس علم الاجتماع: إشكالية الموضوع والمنهج عند ابن خلدون وأجوست كونت وإميل دوركايم"، في مجلة دراسات، المجلد الثامن عشر(أ)، العدد الرابع، 1991.